الدّين بوصفه قيمة أخلاقية: منهج التزكيّة وضرورة استعادته في حياتنا المعاصرة

محمد حلمي عبد الوهاب

Abstract

This article discusses the importance of religious teaching in developing the ethical value. Religious teaching is able to unite various ideologies through fulfilling their psychological need especially the feeling of togetherness. The ethical values in Islam are based on several foundations that the key element is the belief in Allah and judgment day. This article indicates the importance of the feeling of constant observant by Allah that available in human soul. If a believer controls his heart and remembers his God, he will reach at a level where he can see the impact of that feeling in his heart, body and actions. Therefore, in this period of time we are in need of spiritual revolution in our soul to become the foundation for our ethical value.

ملخص

تتحدث هذه المقالة عن أهمية الدين لإثراء القيم الأخلاقية ، وأن الدين قيمة ملزمة رغم إنكار الملاحدة ، وأنه قادر على التوحيد الأيديولوجي للجماعات المؤمنة به عن طريق إرضاء حاجاتهم النفسية ، والشعور بالتماسك والمصير المشترك، وتحفيز المجتمعات المتباينة على الانخراط في منظوماتها القيمية التي يتوجب على تلك المجتمعات أن تتوجه بمقتضاها في أخلاقها وسلوكياتها العملية. إن

القيم الروحية في الإسلام ترجع إلى أصول عديدة ، وعلى رأسها الإيمان بالله واليوم الآخرة ، وتتحدث المقالة عن أهمية استشعار الرقابة الإلهية وتمثلها في الضمير الإنساني، وأن العبد إذا واظب قلبه وراقب ربه يصل إلى مرحلة يستشعر فيها أثر تلك المراقبة في قلبه وبدنه وعمله، يرى الباحث أننا نعيش في عصر قد ضعف فيه الوازع الديني في نفس المسلم ، لأن نور الإسلام قد انكفأ في قلبه وانطفأ في ضميره ، وبالتالي نحن بحاجة إلى ثورة دينية ، وإذا انتقلنا إلى البيئات الغربية نجد أزمة القيم في عنفوانها، وأنه لا سبيل إلى علاج المثالب الحضارية الراهنة إلا بفلسفة روحية قيمية، هي الفلسفة التي لا ترى الحضارة هدفا، حضارة الآلة والعلم ، بل تجعل المدنية أي الأخلاق هي الغرض والهدف، وتعمل بصدق وإخلاص على تحويل الرقي المادي إلى رقي خلقي.

تمهيد

ليس من قبيل المبالغة القول: إن الدّين، أي دين، هو في جوهره عبارة عن نسق قيمي في الأساس. فمن المعلوم أنّ التدين كقيمة له أثر عظيم في المجتمع بوجه عام، لأنه يعمل على توحيد أفراد الأمة والأخذ بهم إلى حياة روحية سامية، مع ما تقتضيه هذه الحياة الروحية من نبل وتضحية وإيثار.

ويكفي للتدليل على ذلك، أنّ المنظومة العقائدية المتعلقة بكل من: "الثواب"، و "العقاب"، و "الآخرة" - والتي تعدُ بمثابة جوهر الخبرة الدينية - يمكن النظر إليها بوصفها البنية الأساسية التي تتضمن المصوغات والمبررات الإنسانية للتدين وفق نسق عملي؛ فضلاً عن أنّ جهاز "الشريعة" الجبار الذي ينفرد به الدّين الإسلاميّ هو في جوهره عبارة عن استراتيجية لتنفيذ منظومة هذا النسق القيمي.

ومن المعلوم أيضا أنّ الدين عادة ما يشتمل على جانبين رئيسيين: أولهما مجموعة الاعتقادات التي تشكل أصوله، وثانيهما مجموعة الشعائر أو الطقوس التي تمثل رسومه. وكلا الجانبين لا ينفصل في الواقع عن الآخر؛ فالشعائر والعبادات مجرد صور وأشكال يُقصد بها التقرب إلى الله تعالى الذي لا

يقبل عبادة نؤديها إلا إذا ألحقنا الأداء لصورتها بالتطبيق العملي لعهودها ومقتضياتها، بيننا وبينه أولا، ثم بيننا وبين الناس فيما يصلنا بهم وفيما يفصلنا عنهم. وبذلك تكتسب العبادات معنى جديدا يتضمن تجديد العهد مع الله سبحانه وتعالى، بحيث تكون وقفات وأوضاع التعبد كلها – ركوعا وسجودا وتسليما وطوافا وإفاضة...إلخ- بمثابة المناسك التي تقوم مقام العهود التي يأخذها العبد على نفسه تجاه ربه، وتجاه الناس أيضا.

ونتيجة لذلك؛ تصبح تلك العهود واجبة التنفيذ في سلوك العبد كله بمجرد الفراغ من أدائها "وبذلك يتقلبُ المؤمنُ بين تجديد المعاهدات وتطبيقها، ويكون موصولا طوال حياته بربه الذي خلقه لعبادته، ... [وبهذا تصبح] العبادة التي كلفنا الله بها، وخلقنا من أجلها وهو غنيٌ عنها، كالشجرة المثمرة لا تُقدَّرُ قيمتها إلا بقدر ما تثمر وينتفع الناس بثمارها".[1] ولعل ذلك هو ما قصده الإمام محمد عبده حين أكد على أن الدين لا يخرج معناه عن "إذعان النفس لإلهها مع الخضوع له وامتثال أوامره فيما يطلب منها".[2] فالإسلام مبنيٌ على أصلين رئيسين هما: أن لا نعبد إلا الله، وأن نعبده بما شرع سبحانه وتعالى: "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا".(الكهف: 110)

ولهذا كانت أصول الإسلام المتفرعة عن هذين الأصلين العظيمين تدور – بحسب البعض- على أحاديث ثلاثة:

أولها: قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه".[3]

ثانيها: قوله صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد".[4]

ثالثها: قوله صلى الله عليه وسلم: "الحلال بيّن والحرام بين، وبينهما مشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبَّهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحَت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب".[5]

أولا: الدين باعتباره نسقا قيميا

لاشك أنّ النظر إلى الدين – من حيث هو قيمة ملزمة- لا يستطيع أحد أن يماري فيها، وحتى المناهجة الذين ينكرون العقائد الأخلاقية فإنهم – على الرغم من ذلك- لا ينكرون قوة الدين هذه.

وكذلك البراغماتية التي تفاعلت تاريخيا في طرح ثري مع القوة الإلزامية والفعلية والقيمية التي يمتلكها الدين، وأفسحت المجال له في الحياة الواقعية.

ويمكننا من خلال هذه الزاوية النظر إلى الوظيفة الدينية في ثلاثة عناصر رئيسية تصب جميعا في المنبع القيمي؛ ألا وهي:

(1) الالتزام القيمي.

(2) الإشباع النفسي والتوازن السيكولوجي.

(3) قدرة الدين على تشكيل قوة تماسك أيديولوجي.

والمقصود بالأيديولوجيا هنا: شبكة القيم والأفكار والمصالح والأهداف والمعايير التي تمثل جمعية الجماعة ، أي تجعل الناس أكثر من عدد الأفراد.[6]

فعلى الرغم من تعدد التعاريف المتعلقة بلفظة "دين"، إلا أنها تتفق جميعا على أهمية عامل التدين في الحياة العامة ودوره في صياغتها؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين ينكرون أمره بالكلية! والدين بهذا المعنى لا ينحصر في "التوجه نحو اللامشروط" بحسب تعبير بول تيليش [7]؛ وإنما يمثل المُحصلة الكلية للأفعال الروحانية الموجَهَةِ نحو الاستحواذ على ذلك الكُنه المُطلق للمَعنى -على حد تعبير الفلاسفة - خاصة إذا ما وضعنا بعين الاعتبار أنّ الدّين "لا يعني فقط مجموعة من التمثلات والمعتقدات والممارسات الطقوسية والثقافية، وإنما هو أيضا [عبارة عن] مؤسَسة اجتماعية، فضلا عن أنه تنظيمٌ ماديّ [وروحاني] لمجموعة بشرية...".[8]

يترتب على ما سبق مجموعة من الأمور المهمة، في مقدمتها أمرين رئيسن:

أولهما: أن الدّين - من حيث كونه معبرا عن نسق من المعتقدات الفكرية- يمتلك قوة قيمية بحد ذاته! ولعل ذلك هو ما يفسر سبب نجاحه في - وقدرته على- التوحيد الأيديولوجي للجماعات المؤمنة به، وذلك عن طريق إرضاء حاجاتهم النفسية، والشعور بالتماسك والمصير المشترك.

ثانيهما: أنه تبعا لذلك يمكننا فهم أسباب تلك القدرة الخارقة للأديان على "التعبئة الروحية" وتحفيز المجتمعات المتباينة على الانخراط في منظوماتها القيمية التي يتوجب على تلك المجتمعات أن تتوجه بمقتضاها في أخلاقها وسلوكياتها العملية.

ففي القرآن الكريم نلاحظ – على سبيل المثال– أن ثمة تأكيدا واسعا على مركزية عمق النوازع الإيمانيّ وأصالته في النفس الإنسانية، وتقريرا بأنّ هذا الإيمان مُصاحب لها منذ بداية خلقها، كقوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ". (الأعراف: 172) وقوله سبحانه: "الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ"(الرعد: 20) أي لا ينقضون ميثاق الأزل، الميثاق الأول، وقت أن قالوا: "بلى"، إنه لا رب لهم غيره، فلا يخافون غيره، ولا يرجون سواه، ولا يسكنون إلا إليه.(9)

ولاشك أنّ الإيمان بالله سبحانه وتعالى – مع ما يقتضيه ذلك الإيمان من مراعاة للحقوق والواجبات–، يعد من أفضل الطرق لتهذيب النفس البشرية وتنقيها من أدرانها، وذلك عن طريق تصفية ملك الجوارح {القلب} الذي إذا ما تزكى تبعته الأعضاءُ كافة {عَسْكَرُهُ المُطيعُ لأوامره ونواهيه}. ولاشك أيضا أن رأس الأمر كله في تزكية النفس الإنسانية هو الإيمان بالله، ومن أجل ذلك كان من رحمة الله عز وجل بالخلق أن بعث فيهم أنبياء ورسلا: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ". (الجمعة: 2)

وهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية الكريمة يجد سندا له في كتب الأولين، فعن عبد الله بن عمرو أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صفته في التوراة: "إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين. أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ... ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا بأن يقولوا: لا إله إلا الله". (متفق عليه)

لقد جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق ويعممها على الفرد والمجتمع، حاكما أو محكوما. وفيما كان أرسطو ينكر علم الله بالجزئيات، كان فكره متجها إلى عالم الطبيعة، ولم يكن يتصور أن ثمة عالما أشرف وأكبر وأشد وطئا وأقوم نظاما، هو عالم الحياة والشعور والروح. لم يكن يدري أن أكبر وأصقل مرآة لوجه الله هو قلب الإنسان، لا الماء والتراب، ولا المريخ أو زحل. وحتى عندما كان يدرس ويكتب في الأخلاق، كان يفكر في أن يضع ضوابط وقوائم للمجاملات عند الملوك

والطبقة الأرستقراطية، و لم يكن يستشعر بأنه يتعرض في طريقه إلى علم ما وراء الطبيعة، أو إلى علم النفس كما فعل فلاسفة الإسلام فيما بعد.

لم يدرك أرسطو - رغم علو قامته- أن علم الأخلاق وفلسفته، بخلاف العلوم الطبيعية، لا يمكن أن يتم أو يتحقق إلا عن طريق الإيمان بالله وبصفاته التي انتزعت عنها المبادئ، وبخلود النفس، وبالدار الآخرة، وبأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وذلك بحكم أنه كان في الواقع يدين بدينين:

أحدهما: يوناني وثني أساطيري يتخيل له ولقومه أن الآلهة تتمثل في أبكر وأكمل فرد للنوع، فكانوا ينسبون إليها الغرائز والنقمة والحسد...إلخ.

ثانيهما: دين فلسفي يعتقد بالإله كاعتقاده بالأنواع والأجناس، أي جنسا فوق الأجناس. وإذا كان كذلك فلا حق له في أن يكون مظهر حب أو مبدأ نظام أو ناموس.

وهكذا كان الإله فوق قمة الجبل ينازع الناس في حب زوجاتهم ويسلبهن من جحورهن. أما في الملأ الأعلى، أو في سماء عقيدتهم، فليس ثمة إلا سكر وعربدة وتنافس على النساء الراقصات! ولاشك أن آلهة كهذه لا يتصور لها إطلاقا أن تكون مصادر لمبادئ ومثلا للأخلاق وللحقوق والواجبات. ولهذا نرى أرسطو في كتابه "علم الأخلاق النيقوماخية" لا يشير إليها، ولا يتكئ عليها بحال من الأحوال.[10] أما بمجيء الإسلام؛ فقد ارتفع مقام الميتافيزيقيا عن جبل أوليمبس، وعن آلهة ذات غرائز جامحة، إلى حظيرة مقدسة كان سورها: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ". (النور: جزء من الآية 35) وقفلها: سورة الإخلاص، لكنها من جهة القلب أقرب إلينا "مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ". (ق: جزء من الآية 16)

ليس غريبا إذن، والحال هذه، أن يعتبر الإسلام "النفس" أو "القلب" محور الشخصية الإيمانية؛ والتي إذا صَلُحَتْ وطهُرَتْ كانت مكينة قوية، وإذا فسدَتْ أو خبُثَتْ ضعفت وانحرفت عن جادة الصواب. وفي ذلك يقول المولى عز وجل: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (الشمس: 7-10) ويقول صلى الله عليه وسلم: "ألا إنّ في الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد القلب كله، ألا وهي القلب". (سبق تخريجه) إذ لا حياة للقلب؛ إلا بفراغه من حبّ الدنيا وموت النفس: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى

يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" (الرعد: جزء من الآية 11)، "ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال".[11]

وحب الحصيد؛ إن غاية الأخلاق عند متمم مكارم الأخلاق تعد من أكمل وأتم ما يكون، لأن كل مفهوم إذا كنا نقابله من جنب العمل يسمى فنا، وحينما توضع القوانين وتُستنبط الكليات من الجزئيات يسمى علما، وإذا تُقاس الأمور من المبادئ والمثل الميتافيزيقية وتُعامَل مع القدم والوجوب واللامتناهي تسمى فلسفة. ومنظومة الأخلاق المحمدية تتضمن الأنواع الثلاثة بل وتجد ممثلا لها في الواقع.

وبيان ذلك: أن أمة الإسلام لا تخلو من طبقة عامية لا تعرف إلا فن الأخلاق، ومن طبقة عاملة تستنبط الكليات من الجزئيات، والنتائج من المقدمات، ومن جماعة عارفة راسخة تفهم حقائق الأشياء.[12] ومن ثم؛ ينبغي أن تحوز المدرسة المتممة للأخلاق:

(1) كل مظاهر المفهوم الخلقي — فن الأخلاق–، كما في هذه الآيات البينات: "وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ" (لقمان: 18)، "فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيما" (الإسراء: جزء من الآية 23)، " وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ" (لقمان: جزء من الآية 19) وأمثالها.

(2) وعلم الأخلاق، كما في هذه الدساتير المقدسة: "إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ" (هود: جزء من الآية 114)، و "الإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس".

(3) وفلسفة الأخلاق، كما في قوله تعالى: "إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورا". (الإنسان: 9)

وتبعا لذلك؛ تمتاز منظومة الأخلاق في الإسلام بأنّ لها ثلاثة أبعاد:

أولها: البعد النفسي، يعني الفرد مع نفسه ومشاعره ومع ربه، وهو المتعلق بصلاته ونسكه.

ثانيها: البعد الاجتماعي، وهو الذي يتعلق بالمجتمع والحكومة ومعاملة الآخرين.

ثالثها: البعد الميتافيزيقي، وهو الذي يتعلق بإطار العقيدة والمبادئ والمثل والمعارف.

أضف إلى ذلك أيضا؛ أنها ليست محصورة بالأوساط وبقائمة من الفضائل الفردية، بل هي عبارة عن مجموعة من الفضائل العقلية والعملية، الفردية والاجتماعية، إلى جانب أنماط من العقائد والعبادات والمعاملات.

وبحسب ابن تيمية؛ فإنّ القلب لن يستغني عن جميع المخلوقات "إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ... فكلما قوى إخلاص دينه لله [كلما] كمُلتْ عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك".[13] ولذلك كان أحد المشايخ ينصح أتباعه بالقول: "كونوا – يرحمكم الله- على ما يُميتُ نفوسَكم ويُحيي قلوبَكم، فأصلُ المَحاسن - من حيث هي هي- من فراغ القلب من حُبِّ الدُنيا، كما أنّ أصل القبائح - من حيث هي هي- عمارتُهُ لحبها".[14]

وعلى ذلك؛ فخطورة القلب تكمُنُ في كونه مصدرًا للخواطر، أي ما يَعْرض فيه من الأفكار والأذكار، والي تكون على ضربين:

(1) ضربٌ يدعو إلى الشر، وهي ما يضرُ بضرر لا ينتج خيرا أقوى منه.

(2) وضربٌ يدعو إلى الخير، بحيث لا ينتج ضررا لاخير فيه أزيد من ضرره.

فالخاطر المحمود الداعي إلى الخير يُسمى "إلهاما"، والذي يدعو إلى الشر بوساطة الشيطان يسمى "وسوسة". وكذلك "اللطف" الذي يتهيأُ به القلبُ لقبول الإلهام يُسمى "توفيقا"، والذي يتهيأ لوسوسة الشيطان يُسمى "خذلانا". وفيما يُيَسرُ الأولُ إفاضَة الخيرات، لاينتجُ عن الثاني سوى الشر والأمر بالفحشاء والتخويف عن الهمّ بالخير بالفقر، وهو ما نجد سندا له في قوله تعالى: "الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ". (البقرة: 268)

والحال؛ إنّ إشكالية القلب تكمن في كونه متجاذبا بينهما على الدوام، ومن هنا كانت المصيبة فيه أخطر من المصيبة في البدن، لأنه موضع الذكر والإيمان، وهو ما عبّر عنه ابن عطاء الله الحنبليّ في تفسيره لقول الله عز وجل: "أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"(الأنعام: 122)،

بالقول: "أومَن كان ميتًا بحياة نفسه وموت قلبه، فأحييناه بإماتة نفسه وحياة قلبه، وسهلنا عليه سُبُلَ التوفيق، وكحلناه بأنوار القرب، فلا يرى غيرنا، ولا يلتفت إلى سوانا".[15]

أما ابن عطاء الله السكندريّ؛ فقد نحى في كتابه "لطائف المنن" إلى تأكيد: "أنّ أولياء الله تعالى حكمهم في بداياتهم أن تُسلط الخلق عليهم ليطّهَروا من البقايا، وتتكمّل فيهم المزايا، وكيلا يساكنوا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومَن آذاك فقد أعتقكَ بأذاه من رقّ إحْسَانه، ومَن أحسْن إليك فقد استرقكَ بجود امتنانه".[16] وينقل عن الشيخ أبي الحسن نصحَهُ أتباعهُ بالهرب من خير الناس أكثر مما يهربون من شرهم، وحجته في ذلك: "أنّ خيرهم يُصيبُك في قلبك، وشرهم يُصيبُك في بدنك، ولأنْ تُصابَ في بدنكَ خيرٌ لك من أن تُصَاب في قلبك، ولعدُوٌّ تَصِلُ به إلى الله خيرٌ لك من حبيب يقطعُكَ عنه".[17]

ثانيا: الأصول العقدية للقيم الروحية

لاشك أن ما تقدم يفضي بنا إلى تقرير أن "القيم الروحية في الإسلام" ترجع إلى عدة أصول عقدية في مقدمتها: "الإيمان بالله وبالآخرة". فمن المعلوم أنّ الالتزام بقيمة الإيمان بالذات يحتاج إلى قوة روحية دافعة يشعُرُ بها الإنسانُ في طواياه، تُحرضهُ على فعل الخير وتحذره من فعل الشر "النفس اللوامة"، وهي ما يتعارفُ عليها الناس في العصور الحديثة باسم "الضمير"، فيما أطلق عليها متصوفة الإسلام قديما ألفاظا من مثل: "مراقبة الله" و "محاسبة النفس".[*] وكان من عادة شيوخهم أن ينصحوا مريديهم بالقول: "إذا اشتغلتِ الناسُ بالعبادة فاشتغل أنتَ بالمعبود، وإذا اشتغلتْ بالمحبة فاشتغلْ أنتَ بالمحبوب".[18]

فإذا علم المسلم أنّ للأعمال – بدنية كانت أو قلبية- تأثيرا في التوفيق والخذلان، وتأثيرا في الإلهام وقبوله، والوسوسة وقبولها، أدركَ من فوره أهمية الاشتغال بمحاسبة النفس وتفهم آثار الأعمال. وبديهيٌ أنّ العبد إذا ما واظب قلبَهُ وراقبَ ربَهُ، أنْ يصل إلى مرحلة يستشعر فيها أثرَ تلك المراقبة في قلبِهِ وبدنهِ وعمله، خاصة وأنّ الغاية الكبرى من فرائض الإسلام إنما تكمُنُ في "تحقيق العبودية لله، وحفظ الإنسان ورعايته والعناية به، وحفظ عقيدته، وتزكية قلبه، وتطهير روحه وعقله، وحفظ ماله وعرضه، وتقوية الروابط الإنسانية، وإقامتها على أساس متين من الحب والرحمة والأخوة والمساواة والعدل".[19]

والواقع أنّ استشعار الرقابة الإلهية وتمثلها في الضمير الإنسانيّ تبدو أكثر ما تبدو في عبادة الصوم. ذلك أنّ تجربة الصوم – على وجه الخصوص- تجعل من الله – عز وجل- حاضرا على الدوام في ظل غياب البشر، وهنالك يمتنع الصائم – مهما اشتد به الجوع أو العطش- عن أن يَمُدَ يدَهُ إلى طعام أو شراب يسُدُ به رمقه، أو يُطفئ به ظمأه – لا خوفا أو حياءً من رقيب- ولكن خضوعا لرقابة المولى القدير الذي: "يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور" (غافر: 19)، و "يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى" (الأعلى: جزء من الآية 7)، "رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ"(إبراهيم: 38)، "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"(المجادلة: 7)، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"(النساء: 1)، أي "عالِمًا بما تُضْمِرهُ في سِرّكَ وما تُخْفِيه من خواطرك، فراقبْ مَنْ هو الرقيب عليك [في سرّك وجهرك على السواء]".[20] ولهذا ورد في الحديث الشريف: "الصيّامُ لا رياءَ فيه. قال الله تعالى: هو لي وأنا أجْزي به، يَدَعُ طعامَهُ وشرابَهُ من أجلي".[21]

ولاشك أنّ الإنسان لا يستطيع أن يصوم أمام الناس ثم يفطر في خلوته، إلا إذا انخلعَ عن إيمانه برقابة الله عليه وخوفه منه، وعند ذلك يكون ممن أدخلوا أنفسهم في دائرة العذاب. أما العبد الذي تعوّد رقابة الله في السرّ والعلن؛ فإنه يصبح من المؤمنين إيمانا عمليا بأنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما في الصدور، وأنه أراد من صيامه هذا أن يتعوّدَ على طاعة أمره، وعلى ترك محارمه مدى الحياة: فحرّمَ عليه الطيبات في نهار رمضان، ليكون أشدَّ امتناعا وبعدًا عن الحرام في كل الأوقات، وحرّم عليه أن يأكل من كسْبِهِ الحلال في نهار رمضان، ليكونَ أشدَّ امتناعًا عن الأكل من الكسْب الحرام في كلّ الأوقات، وهكذا بالنسبة لكل مُفْطر حلال تدريبًا له على ترك الحرام، وعدم الاشتغال به، والبُعد عنه باستمرار.

صحيح أن استشعار الرقابة الإلهية وتمثلها في الضمير الإنساني ليس وقفا على شهر رمضان فحسب؛ ولكن شهر رمضان هو الذي يمنح التجربة ويقدم المثل الأروع على ذلك. فالعبادات الإسلامية بأجمعها، ما هي في جوهرها إلا "تكليف لضمير الإنسان وحده، لا يتوقفُ

على توسيط هيْكل أو تقريب كهانة. [بل المسلم] يُصلي حيث أدركه موعِدُ الصلاة "وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [البقرة: 115]، ويصومُ ويفطرُ في داره أو في مَوْطن عمله، ويحجُ ليذهبَ إلى بيت لا سُلطانَ فيه لأصحاب سدانةٍ، ولا حق عندهُ لأحد في قربانه، غيرُ حقّ المساكين والمعوزين. ويذهبُ إلى صلاة الجماعة، فلا تتقيَدُ صلاتُهُ الجامعة بمراسم كهانةٍ أو إتاوةِ محراب، ويؤمهُ في هذه الصلاة الجامعة مَنْ هو أهلٌ للإمامة... إنهُ الدّين الذي نتعلمُ فيه أنّ الإنسانَ مخلوقٌ مُكلف، لاجرمَ تقومُ عباداتهُ على رعايةِ حقّ الضمير واستقلالهِ بمشيئتهِ أكرم رعاية".(22)

ومن هنا؛ يتعين على المسلم أن يؤمن تمام الإيمان ويوقن تمام اليقين بأنه خاضع على الدوام لرقابة عليا لا تخفى عليها خافية، وأن يستشعر هذه الرقابة في ضميره، فيقيم منها رقيبا على نفسه إذا ما خلى بها مبتعدا عن الناس، ممتنعا عن إتيان أمور هي قوامُ حياته، متخذا من ذلك عبادة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى. وفي كل الأحوال؛ فإن بإمكان الإنسان أن يصبح رقيبا على نفسه، أمينا على حدود الله، محافظا على حقوق المجتمع، من دون أن يخضع في ذلك لسطوة القانون وعينه الساهرة. خاصة وأن القانون بمواده ونصوصه — مهما تكن سلامتها وسمو مبادئها- لا يكفل تحقيق الرقابة الذاتية على النحو الذي يوفره أنموذج "المراقبة والمحاسبة".

صحيح أنّ ثمة أجهزة للرقابة وتنفيذ القانون، "ولكن هذه الأجهزة نفسها لابد لها وهي تقوم على تنفيذ القانون من رقابة الضمير، وإلا اختلّ في يدها الميزانُ [على ماهو شائع ومشاهَد!] وتحوّل القانون إلى أداة تميلُ بها الأهواءُ حيث تشاء. وكذلك أفراد المجتمع ليسوا دائما وفي جميع الحالات تحت أعين أجهزة الرقابة أو في متناول قبضة القانون... ولهذا كانت رقابة الضمير هي السند لسلطان القانون على الناس، والضمان الأكيد لاتباع أوامره واجتناب نواهيه".(23)

الدّين بهذا المعنى يهَبُ الإنسانَ كرامتهُ الموفورة حين يُوقظُ فيه ضميرَه، بل ويجعلهُ حكمًا فيما يعرضُ له من أمور الناس. ومن هنا نستطيع أن نفهم حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك"(24) وقوله: "البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في الصدر وكرهْتَ أن يطّلعَ عليه الناس".(25) خاصة إذا علمنا أنّ المراد من

الحقيقة والشريعة في الإسلام هو إقامة العبودية على الوجه المراد والمطلوب، فكلُّ شريعةٍ لا حقيقة لها فهْيَ عاطلة، وكلُّ حقيقةٍ لا شريعة معها فهْيَ باطلة. ومصداقُ ذلك نجده في قوله صلى الله عليه وسلم لحارثة: "كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ مؤمنا حقا. قال: لكلّ حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا فأسْهَرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري وكأنّي أنظرُ إلى عرْش ربي بارزًا، وإلى أهل الجنة يتزاورون وإلى أهل النار يتعاوون. فقال عليه السلام: عرفت فالزم".[26]

فالشريعة حق والحقيقة حقيقتها: الشريعةُ هي القيام بالأوامر الإلهية، والحقيقةُ هي مشاهدة الأمر، والحقيقة والشريعة يجمعهما كلمتان في قوله تعالى: "إيّاك نعبد وإيّاك نستعين" فـ "إيّاك نعبد" شريعة و "إياك نستعين" حقيقة.[27] ولذلك روي عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "العلم علمان: علم باللسان، وعلم بالقلب؛ فأما علم اللسان فهو حجة الله للعباد، وأما علم القلب فهو العلم الأعلى"[28] الذي لا يُخشى الله إلا من خلاله: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ". (فاطر: جزء من الآية 28)

يقول صاحب الظلال في تفسير "إياك نعبد وإياك نستعين" ما نصه: "وهذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة. فلا عبادة إلا للّه، ولا استعانة إلا باللّه. وهنا كذلك مفرق طريق: مفرق طريق بين التحرر المطلق من كلّ عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد! وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشريّ الكامل الشامل. التحرر من عبودية الأوهام، والتحرر من عبودية النُظم [الاستبدادية]، والتحرر من عبودية الأوضاع. وإذا كان اللّه وحده هو الذي يُعبد، واللّه وحده هو الذي يُستعان، فقد تخلص الضميرُ البشريّ من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات".[29]

ومما يؤكد هذا الأمر؛ ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تتفرقوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه".[30]

فالصراطُ هو الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من جوف الصراط هو واعظ الله في قلب كل مؤمن. ولعله هو الواعظ ذاته الذي سماه المولى عز وجل "برهانا" في قصة يوسف عليه السلام حين قال: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ". (يوسف: 24) وهو الصراط ذاته الذي تحدثت عنه سورة الفاتحة بعد الإقرار بإفراد الله بالعبادة والاستعانة: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ". (الفاتحة: 6-7)

وفي ذلك يقول صاحب الظلال: "وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته: فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وَحْدَهُ المُعين. وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يَطلبُ المؤمنُ من ربه العون فيه. فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين .. وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذي يُنسّقُ بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى الله رب العالمين". (31)

ومما له دلالة في هذا السياق؛ أن لفظة "الصراط" وردت في القرآن الكريم في ثمانية وثلاثين موضعا، كما وردت مشتقاتها (صراطا، صراطك، صراطي) في سبعة مواضع أخرى. (32) وفي أغلب هذه المواضع يرتبط لفظ "الصراط المستقيم" بالهداية كما في آيتي الفاتحة، وكما في قوله تعالى: "سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (البقرة: 142)، وقوله: "وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (آل عمران: جزء من الآية 101)، وقوله: "قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ". (الأنعام: 161)

كما ترتبط لفظة "الصراط" بكلّ من: العبادة وقيمة العدالة على وجه الخصوص. فمن الآيات الدالة على الأمر الأول قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ" (آل عمران: 51)، وقوله: "وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ". (يس: 61) ومن الآيات الدالة على ارتباط الصراط بالعدالة قوله تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ

عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"(النحل: 76)، وقوله: "إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ". (ص: 22)

وفي كل الأحوال؛ فإن مما يؤسف له أشد الأسف في عصرنا هذا أنّ الوازع الديني قد ضعف في نفس المسلم، لأن نور الإسلام قد انكفأ في قلبه وانطفأ في ضميره، فلم يعد إسلامه إسلام الصدر الأول، الذي فتح الدنيا في عهده وأضوى العالم إلى كنفه، وإنّما أصبح خليطا عجيبا من العقيدة السالفة، والصوفية الزائفة، والأساطير الموروثة والتقاليد الدخيلة، بحيث يوهمُ معتقديه أنّ الإسلام ليس من شأنه الدّنيا، وأنّ المسلم ليس من همه المادّة، وأنّ ما هم عليه من رتق العقيدة وظلام الفكر وخدر الشعور، إنّما هو روح الدّين ورضا الله وطريقُ الجنّة! ثم لا يعدمون أن يجدوا مصداقا لما يتوهمون، في بعض ما يسْمعون أو يقرأون من الأحاديث الموضوعة والأخبار المصْنوعة والآراء الملفقة.

ومن ثم؛ فإننا في أمسّ حاجة اليوم إلى ثورة دينية تقوم في جوهرها على "تحريرُ العقل من الإقتداء العاجز والمتابعة المُسلّمة، وتطهيرُ السُنة من الأحاديث المكذوبةِ والأقوال المشوبةِ، وتطويرُ الفقهِ في حدود ما أنزّل الله وبلغ الرسولُ، ليطابقَ مقتضيات العصْر ويجابهَ مشكلات الحضارة، ثم عرض هذا الإسلام الصادق الصافي على الناس في معرض واضح ومظهر جاذب ومنهج قويم".(33)

على أنّ تحقق القيم الروحية يستلزم لامحالة المزج ما بين تكوين الاعتقاد السليم من جهة، وتكوين الثقافة الروحية الواسعة من جهة أخرى. خاصة إذا ما وضعنا بعين الاعتبار أنّ غرس التديُن – الذي هو أساسُ القيم الروحية– لا يكون إلا:

(1) عن طريق إعمال النظر في الذات الإنسانية أولا، وذلك من خلال البحث والتأمل مصداقا لقوله تعالى: " فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ". (الطارق: 5) وقوله: "وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ". (الذاريات: 21)

(2) أو عن طريق تأمل كتاب الله المكنون (الكون) ثانيا، مصداقا لقوله تعالى: "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ". (الذاريات: 20)

وبطبيعة الحال؛ فإن من الحقائق التاريخية الثابتة أنّ الإنسان لن يصل إلى وضع ينعدم فيه تأثير الدين في الأخلاق أو السياسة والعكس إلا بانزواء الدين وانسحابه كليا من هموم الدنيا، أي من مسرح الحياة والكيان الإنسانيّ؛ وهو أمر بعيد المنال- إن لم يكن مستحيلا أصلا- "فالدين قوة روحية ثقافية اجتماعية والسلطة الدينية سلطة روحية ثقافية اجتماعية. ولذلك تكتسبُ العقيدة الدينية، حتى في الدول المستقلة من الدين، موقعا يضارع الموقع الذي تحتله العقيدة الأيديولوجية".[34]

ومن هنا كان هنري برجسون محقا عندما لاحظ تلازُم عنصر التدين مع تطور المجتمعات الإنسانية جميعها من دون استثناء، وهو ما دفعه لأنْ يتساءل: كيف يضطردُ ذلك مع نمو العقل البشري؟! منتهيا إلى تقرير أنّ الأديان ضرورة حيوية، بل إنها ملازمة للحياة نفسها، كونها جزءاً من "النزوع الحيوي" للكائن البشري. وبحسبه؛ فإنه إذا كان الحيوان ينقادُ اجتماعيا بغريزته وحدها، فإنّ الإنسان ينقاد بعقله إلى التدين، أما إذا خشي المجتمع أن ينحرف العقل إلى النوازع الفردية فيعوق مسيرته، فإن الديانة تصبح آنذاك خير رادعة له، رادة إياه إلى الطريق الاجتماعي السليم "الصراط المستقيم"![35]

يترتب على ما سبق؛ أنّ الإنسان متدين بالطبع؛ ولذا "فإنّ الوظيفة التقديسية عنده وظيفة أزلية، [كما أنّ] التجربة الإنسانية السابقة للتاريخ كانت حتما متدينة قبل كل شيء، متدينة بأيّ شيء... وحتى الشك في الدّين هو في النتيجة نوعٌ من التديُّن، لأنه في غالب الأمر محاولة لتعويض آلهة بآلهةٍ أشدّ، والوصولُ إلى الإله الأقوى".[36]

أما الإسلام كدين؛ فإنه يعبر في جوهره عن الفطرة الإلهية الموجودة لدى جميع الخلق. وهذا المعنى يشدد على تأكيده القرآن الكريم في أكثر من موضع، كقوله تعالى: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".(الروم: 30) خاصة وأن الإسلام ليس مجرد فلسفة؛ وإنما هو عبارة عن "نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية. وإنك لترى هاتين الوجهتين في تعاليم الإسلام تتفقان في أنهما لا تدعان

تناقضا أساسيا بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلا أمر يؤكده الإسلام، إذ يراه الأساس الطبيعي للحياة".[37]

صحيح أن هذا الصوت الفطري قد يخفت في النفس، أو يكبته صاحبه عمدا في ساعات الرخاء والدعة؛ لكنه ما أن تنزل به نازلة أو يمر به حادث مرير حتى يهتز وجدانه أمام الشدائد القاسية فيتجه من فوره صوب الخالق سبحانه ضارعا خاشعا، راجيا خاضعا، منيبا متوسلا أن يُذْهِبَ الضُّرَ عنه: "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"(الزمر: 8)، " وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ"(لقمان: 32)، "وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا".(الإسراء: 67)

ومن هنا؛ كان تأكيد متصوفة الإسلام على أنه ليْسَ بخالص لله تعالى مَنْ لا يكونُ في حالة الرخاء مع الله كحال الشدة، حيث المحنة والمنحة سواء، وأن مَن يلتجئ إلى غيره في أحوال الشدائد، فهو من العبيد السوء الذي لا يقومه إلا الأدب![38]

ثالثا: جوهر العبادة وأزمة القيم المعاصرة

من المعلوم أنّ القيمة ليست شيئا مجردا مستقلا في ذاته بعيدا عن سلوك الإنسان؛ وإنما هي مندمجة في السلوك نفسه، بحيث يمكن أن تتخذ من سلوك فرد ما دليلا على القيمة التي يؤمن بها. ومن هنا؛ كان جوهر العبادة في الإسلام طريقا لتزكية النفس من جهة، وسبيلا للتضامن الاجتماعي من جهة أخرى: فالكونُ محرابُ المؤمن، وكلُّ حركةٍ تصْدُرُ عنه في ليله أو نهاره تدخُلُ في صميم العبادةِ إذا ما أحْسَنَ النيّة وأخلص العمل.

وعلى ذلك؛ فمَن وقرَ في قلبهِ هذا المعنى فقد حقّقَ الغاية من وجوده، ومن قصّرَ في فهمه فقد أبطلَ غاية وجوده، وأفرَغَ حياتَهُ من كلّ قصْدٍ نبيل، وهنالك تصبح نفسه "أوهنَ من بيْت العنكبوت"، فإذا بها تقع فريسةً لأضعف الإغراءات، وإذا بها تُستَعْبَدُ من قبل توافه الأمور!

وإذا ما بلغ الإنسان تلك الدرجة المشئومة؛ أصبحَ عارا على الإنسانية غير مستحق لتكريم الخالق عز وجل: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ

وَبِئْسَ الْقَرَارُ"(إبراهيم: 28-29)، "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ". (الأعراف: 175- 176)

الإنسان إذا – وفقا لما سبق– "حاملُ قيمةٍ" ينبغي أن تتجلى في أعماله كافة: في سعيهِ إلى الرزق، وفي بحثه عن العلم، وفي اكتشافه للظواهر العلمية المفيدة للإنسانية داخل مختبره ومعْمَله، في سهره على راحة أسرته: "كفى بالمرء إثمًا أنْ يُضيّعَ مَنْ يقوت"[39]، في حمْلِهِ الرضيع الصغير وضمه إليه، في مساعدته زوجه في إنجاز بعض أعمال البيت ...إلخ.

وما كل أولئك بخارج عن معنى العبادة في الإسلام، التي تطلق على نوعين من الأعمال:

أحدهما: أنشأ الشارعُ حقيقتَهُ وصورته، فليْسَ يُعْرَفُ إلا عن طريقه، ولا يصح الزيادة أو النقص فيه، أو الابتكار والابتداع.

والآخر: يشمل أنواعَ النشاط الإنسانيّ كلها، إذا ما وقعت بين ضابطين من "حُسن القصد، وشرف الغاية" وهذا النوع يتشابك فيه الدين مع بعض الفلسفات الخلقية والاجتماعية التي تتعرض لأحوال الإنسان وشؤون حياته.[40] ما دفع البعضُ إلى القول: "إنّ الثورَة في القيم أكثر ضرورّة من أيّ ثورةٍ أخرى، لأنّها أساسُ الثورة السيّاسيةِ والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافية".[41]

القيم الروحية – بهذا المعنى– تلهم العقل وتهديه سواء السبيل؛ خاصّة وأنّ العقل يُدرك الأمور على ما هي عليه، أمّا لماذا يؤثرُ طريقا دون آخر، ولماذا تتحركُ النفسُ في اتجاه دون آخر؟ فمردُّ ذلك إلى "منظومة القيم" التي تُضيءُ له السبيلَ فيتعرّفُ من خلالها الحقّ من الباطل. وهذا الأمرُ تزْدَادُ الحاجةُ إليه في ظلّ التقدُم التقنيّ الهائل الذي استولى على مجامع الإنسان المعاصر؛ فإذا به يتحولُ بدورهِ إلى آلةٍ من الآلات، وإذا بمسخ "فرانكشتاين" يتغول على صانعه.

ولعلّ ذلك هو ما يفسر لنا — في جانب من جوانبها– حركة النقد العلمية التي تتعاظم يوما بعد يوم من داخل بنية النسق العلمي الغربي متساءلة عن سبب المعضلة الحضارية، وما إذا

كانت ترجع إلى طبيعة الحضارة ذاتها، أم إلى فساد في منظومة القيم والمثل التي ترافقها؟! فقد أثرت الآلة في كلّ جانب من جوانب الوجود البشري الحديث والمعاصر، مخلفة وراءها أصداءً عميقة في نظرة الإنسان إلى الوجود، وفي سبل ممارسته للحياة، وطرائق عيشه المتجدد باستمرار.

ومما يؤكد ذلك؛ ما يقرره البعض من أنّ الآلة الأولى التي أبدعها الإنسانُ لم تكن الفأس ولا المنجل ولا العصا ولا المحراث، وإنما كانت (الفخ) الذي نصبَهُ الإنسانُ الابتدائيُّ في رحلةِ الصيد لقنص الحيوانات وأسرها! ثم سرعان ما تطور علم الإنسان "حتى وصل إلى معرفة قوانين الطبيعة، وبرع في استخدامها للسيطرة على القوى الكونية، إلى أنْ قَهَرَ المادة، وركب منكب الفضاء وجاوز الجوزاء... ونحن جميعا ندرك اليوم أنّ عالَمًا قديمًا يموتُ وآخر يُولدُ من جديد، وقد غدونا الآنَ مُرْهقي الحِسّ، شديدي التأثر والانفعال حيالَ كلّ ما يتّصِلُ بشرْط وجودنا الماديّ والمعنويّ في هذه الحياة".[42]

ولا أدلّ على أزمة القيم الغربية المعاصرة من التأثيرات السلبية المتعلقة بفكرة "الزواج وتكوين الأسرة" هناك. ففيما كان هذا الأمر في الماضي عبارة عن مصاهرة تتم بين أسرتين، أو عشيرتين، أو عرشين، أو مملكتين، وكان الزوجُ يفيدُ من الزواج مزيدًا يحميهِ من خصومهِ ويوسّعُ نطاقَ نفوذه الاجتماعيّ، ويُخفِفُ عليه شدّة الصدمةِ في أحوال النكْبَةِ المُباغتةِ والمرض العضال، والقحط والغزو والغارات؛ إذا به في الحضارة الحديثة لا يخرُجُ عن كوْنهِ عقدًا يُعْتَرَفُ به في المجتمع بين شخصين مستقلين يتكاملان بالجنس من حيث رغبتهما الخاصة، وعاطفتهما المتبادلة!

وفيما كانت الأسرة قديمًا مدرسةً ومعْمَلا ومعْبدًا ومحْكمةً معا؛ إذا بها تفقِدُ اليومَ جُلّ وظائفها حين اضْطُرت المرأةُ إلى العمل خارج المنزل، وأنيطت الوظائف الأسرية بمؤسساتٍ وهيئاتٍ مختلفة لم تُبْقِ المرأةَ مُمرضَة ترْعى شيخوخة بَعْلِهَا كما حسِبَ "سُقراط"! بل صارت الدولةُ راعيّة للشيخوخةِ وباتَ الضمانُ ضمانا اجتماعيا عاملا في كفالة الدولةِ أو النقابةِ أو في ريع استثمار الثروة في الأسهم والسندات!

كانت الأسرة قديمًا تتكونُ من زوج وزوجة وأبناء، فإذا بالنموذج العصري يكتفي بعنصريّ المعادلة الأول مستبدلا العنصر الثالث بحيازة زوجين من القطط أو الكلاب![**] أمـا إذا

بلغ الأب أو الأم مرحلة الشيخوخة فما من حل سوى إيداعه دارا لرعاية المسنين والمسنات، ولا ضير من زيارته مرة في السنة في أعياد الميلاد!! وللأسف الشديد فإن بعضا من الدول العربية أخذت تنتهج نفس النهج تقريبا؛ ففي مصر - على سبيل المثال- يوجد عشرات من دور المسنين تتنشر في القاهرة بالذات.

وهكذا لم تعد النظم مستقرة والعقائد ثابتة، وإنما تزعزعت وتأرجحت وتهافتت بفضل ضغوط الحياة، وبينما كان الإنسان يطمح إلى أن يعيش أحفاد أحفاده في رغد من العيش - ولذا يوقف من أجلهم الأوقاف- إذا به لا يفكر إلا في حدود نفسه أو أسرته على أبعد تقدير! بعد أن تغيّرَ وجه الحياة في العالم الحديث، وصحب كلَّ تغير مادي تبدّل في نظرة الإنسان.

والواقع الذي لاشك فيه أنّ الأزمة في عنفوانها هي عبارة عن "أزمة انقطاع الاتزان بين ما يخلق الإنسان، وبين الأهداف المثلى التي يترتب على البشر التزامها فيما وراء الاختراعات، أزمة خوف وحيرة وقلق وهلع، إنها أزمة انخلاع القلب والعقل، وهي تفرض على إنسان اليوم أن يعيش عيش إبليس، يحيا بانتظار الموت، ويرقب، وهو مشتت اللب، خائر الفؤاد، فاقد الرجاء، اطباق موت ذري يتزل عليه ويحيق به كالقدر المحتوم، فيمحو كيانه وحياته، ويمحو كل كون وحياه".[43]

صحيح أنّ الرأي السابق قد يراه البعض معبرا عن فئة العقائديات المتشائمة في المقابل من فئة الفلسفات المتفائلة، إلا أنّ الأخيرة هي الأقل حظا وذيوعا وعمقا في آن معا. وفي كلّ الأحوال فإن أحدا لا ينكر حقيقة أنّ التقدم التقني الهائل ييسر رفاه الإنسان من الناحية المادية، لكنه – وفي الوقت نفسه- يُشكلُ عاملَ ضغط مستمر على قيمه وحياته الروحية لدرجة أنّ منظومة عادات الهِمّةِ والدَأب والنشاط فسدتْ برُمتها إزاءَ هذا الضغط المتنامي والمستمر. فالآلات، إذ تلبي احتياجاتنا تلبية إجمالية رتيبة، تقتلُ في الوقت نفسه إمكانات الإنسان الإبداعية، وتفرض علينا أن نعيش متماثلين بحيث لا يتميز إنسان على آخر بأصالةٍ أو إبداع، فضلا عن أنها تقدينا من حيث تزعُمُ أنها تنْهَضُ في خدمتنا على الدوام!

وبحسب توماس كارليل؛ فإنّ المعامل الحديثة حلت محل المعابد القديمة، ومن أجل تجاوز هذا الأمر لابد وأن نتزل إلى قرارة أنفسنا ونبحثُ فيها عن سؤر من الروح، وبانتظار ذلك لا نستطيع أن نفعل أي شيءٍ على الإطلاق! وهو ما يعكس تناميا في وتيرة الجدل الدائر حاليا بشأن غائية العلم وقيمته من زاوية الخير والشر، زاوية الأخلاق. فما من شك "أنّ علماء الكيمياء العضوية كانوا يهدفون باكتشافاتهم إلى النفع الذي سيجنيه الناس في حقل الطعام والغذاء والدواء؛ غير أنّ المعامل الكيميائية ذاتها هي التي أنتجت الغازات السامة الفتاكة، وهي التي تهددنا بحرب الجراثيم".[44]

وهنا نجد أنفسنا إزاء تساؤل يفرض نفسه بقوة، وهو: هل يكون في الرجوع إلى القيم الروحية التي تحملها العقائد الدينية مخرجا من أزمة العلم الحديث والمعاصر؟ وكيف يمكن لهذه المنظومة القيمية أن تعيد للإنسان توازنه المفقود قبل أن يأتي على كل إبداعات البشرية بضغطة زر واحدة؟ قبل أن نجيب على هذه التساؤلات علينا أن نؤكد أولا أنّ العلم سلاح ذو حدين: فالتفجير بالديناميت والتفجير بالذرة كلاهما يصلُح للخير والشر. ومن هنا نفهم كيف بنى الاتجاه اللاهوتي البروتستانتي في القرن التاسع عشر، خاصة لدى ألبرت ريتشل، دعوته اللاهوتية على أسس فلسفية بهدف حماية الدين من هجمات العلم تحت شعار: "الدين للقيم والعلم للظواهر والحقائق" وإن كانت نظرته هذه قاصرة لأن القيم متوشجة في صميم كل ممارسة وفاعلية إنسانية.[45]

يترتب على ما سبق؛ نتيجة مهمة مفادها: أنّ مشكلة الحضارة الغربية تكمن في مشكلة "المدنية" بالذات، أي أنها مشكلة "السبب" لا "النتيجة"، مشكلة "الغاية" لا "الوسيلة"، مشكلة "الإنسان" لا "المادة"، مشكلة "الإرادة الفاعلة"، مشكلة "المسؤولية والاختيار". وبالتالي فإنه لا مناص من أن يتحول الإنسان من إنسان "الغريزة والطبيعة" إلى إنسان "المدنية والأخلاق" خاصة وأن مشكلته الأساسية هي مشكلة "الحرية": حرية الإنسان في أن يفعل أو لا يفعل، وهي مشكلة "أخلاقية" بالدرجة الأولى. على أن تحديد موضع المشكلة يعد بمثابة نصف العلاج وليس العلاج كله، خاصة وأن ذلك يدخلنا مباشرة في أتون صراع وجدال من نوع آخر تماما يتمحور حول القيمة الأخلاقية بحد ذاتها: وما إذا كانت مطلقة أم نسبية...إلخ؟!

وفي المحصلة؛ يمكننا القول بأنّ القيمة إنسانية بطبيعتها، بمعنى أنّ الإنسان هو الذي يخلع القيمة على الأشياء وأنها تنبع من الذات وتصدر عنها لا من شيء خارجيٍّ يتسم بطابع إكراهيّ: "لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم"(البقرة: 256) وهو ما يترتب عليه أمران رئيسيان:

أولهما: أنّ القيمة تتدرج في وضوحها وقوتها وسلطان هدايتها بمقدار ما يشعرُ المرءُ بذاته.

ثانيهما: أنّ الوعي بالقيمة شرط أساسي في تطور الأخلاق وتهذيب المجتمع.

في ضوء ما تقدم نجد أنفسنا إزاء تساؤل آخر يفرض نفسه هو الآخر، يتعلق بموقع القيم الدينية من هذا الصراع/الجدال؟! خاصة إذا ما وضعنا بعين الاعتبار أنّ القيمة في الأساس هي عبارة عن ترجيح عاشه الإنسان منذ أن قام بتغيير ما في نفسه، وما في الأفق المحيط به. ومن ثم؛ فإنّ البحث في القيم بحث في الإنسان الفاعل بوصْفِهِ الفرديّ والاجتماعي، حيث "انتقل الإنسان من عيش أفعاله إلى وعي هذه الأفعال، وميز الوسيلة عن الهدف، وتذرع بالمعرفة طلبا لتحقيق الغاية المرموقة، وأنجب في دروب بحثه عن المعرفة العلوم الوضعية كافة، وما برح يتطلع إلى تعمق هذه المعرفة ملحفا على جانب علاقة النشاط الإنساني بالأهداف والغايات، أي بالقيم التي إن استطاع الإحاطة بجوهرها استطاع استكمال معرفته بمعنى نشاطه في جميع المجالات".(46)

على أنّ مسار الارتباط بين القيم والتقدم لم يمض على هذا النحو المتفاءل، وإنما على العس من ذلك تماما أخفقت القيم الأخلاقية، وانهزمت، وتم سحقها وهزيمتها انتصرت حضارة الآلة/الفسخ، وانحدرت كرامة الإنسان: فمن نبالة السمو بالروح والقيم إلى حطة الغريزة وخسة البطش بالقوة والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى أبرزها الاحتلال السياسي والعسكري لكل من فلسطين والعراق وأفغانستان...إلخ.

وبالعودة إلى برجسون مرة أخرى؛ نجده يؤكد على أن البشرية استطاعت أن تستكمل أدواتها خلال القرن الأخير بأحسن مما عملت خلال آلاف السنين، ولكن روحها – الروح الفردي والاجتماعي- لم يستطع أن يكتسب بعد ضميمة من القوة تمكنه من حكم الجسد، هذا الجسد الذي ازداد سعة وحجما بصورة مباغتة! وعلى العلوم الأخلاقية يقع عبء الرسالة، رسالة إعادة الاتزان والتوازن للإنسان المعاصر. فكيف يمكن للأخلاق والقيم أن تلعب دورا مهما

– وحتميا- كهذا؟ ثمة من يؤكد أنّ الأمر بسيط جدا، وفي متناول حضارتنا الإسلامية على وجه الخصوص، خاصة وأنّ القيم الإسلامية لا تضيق بالتقدم العلميّ، ولا تنافي الإبداع والابتكار.

رابعا: القيم بوصفها خلاصا من سطوة العلم

يتفق كثير من العلماء اليوم على أنه لا سبيل إلى علاج المثالب الحضارية الراهنة إلا "بفلسفة روحية قيمية، هي الفلسفة التي لا ترى الحضارة هدفا، حضارة الآلة والعلم، بل تجعل المدنية، أي تجعل الأخلاق، هي الغرض والهدف [من كل تحضُّر]، وتعمل بصدق وإخلاص على تحويل الرقي المادي إلى رقي خلقي، وتطوير الواقع ليمسي واثقا بالروح. لقد اصاب الإنسان نصرا على المادة لا يضارعه نصر، ولكنه يحتاج إلى نصر آخر، نصر أسمى، نصر على نفسه وطبيعته، وذاك هو الجهاد الأكبر المستديم".[47]

فهل ثمة ثغرة في الحضارة الحديثة لم تُسد بالفعل تمكننا من أن نتقدم كمسلمين لسدها، وهل ثمة جانب مهدوم لم يلتفت أحد إلى بنائه يمكننا أن نتقدم نحن لبنائه؟ وهل عندنا ما نقدمه لهذه الحضارة مما قد ينقصها، وهي في أمس حاجة إليه؟ وهل في اتجاه هذه الحضارة وخط مسيرها انحراف يمكن أن نصححه؟!

واقع الأمر، أنه للإجابة على هذه التساؤلات لابد من معرفة هدفنا البعيد وموقعنا من الحضارة في مصيرها المتحرك وخط اتجاهنا ونوع الحضارة التي نستهدفها ودورنا الممكن في تكوينها ورسالتنا فيها، خاصة وأنّ هذه الحضارة ليست مغانم خالصة من المغارم، ولا مكاسب مبرأة من الخسران، ولا كمالا منزها عن النقصان.[48]

في هذا السياق يبرز ما قاله برتراند رسل من أنّ عناصر الحياة ثلاثة هي: الغريزة، والعقل، والروح. وأنّ الحضارة الغربية اهتمت بالعنصرين الأولين ولم تهتم مطلقا بالروح. ومع أنّ بإمكان العقل أنّ يهدينا لفعل الخير والامتناع عن فعل الشر، إلا أنّ عنصر الروح وحده هو الذي يُمكّننا من أن نشعر شعورا إنسانيا عاطفيا قلبيا، وأن نحس بإحساس الآخرين. ويتابع رسل: إنّ العقل والغريزة لا يحلان المشكلة؛ ولذلك فإنه لابد من انسجام العناصر الثلاثة وتنميتها تنمية قائمة على الانسجام حتى تسير الحضارة على طريقها المستقيم.

ليس غريبا إذن، والحال هذه، أن يؤكد البعض بأن الغرب الحديث "يعبد الحياة بالطريقة نفسها التي يعبدُ بها النهمُ طعامَهُ: إنه يلتهمه ولكنه لا يحترمه. أما الإسلام؛ فإنه ينظر إلى الحياة الدنيا بهدوء واحترام. إنه لا يعبد الحياة، ولكنه ينظر إليها على أنها دار ممر في طريقنا إلى وجود أسمى. ولكن بما "أنها دار ممر" ضرورية، فليس من حق الإنسان أن يحتقر حياته الدنيا ولا أن يبخسها شيئا من حقها. من أجل هذا كان لحياة الإنسان قيمة عظمى، ولكن يجب ألا ننسى أنها قيمة الواسطة إلى غاية فقط".[49]

وإذا تقرر أنّ في الغرب أزمات وقلقا نفسيا واضطرابا في مجرى الحياة وضعفا أو تدهورا في الخلق والعواطف وترديا في النفس الإنسانية وإخفاقا في محاولات الإصلاح الكبرى، وفوق هذا وذاك ثمة حاجة شديدة إلى بروز أهداف جديدة وغايات إنسانية وقيم روحية عميقة...إلخ. إذا تقرر ذلك؛ اتضح لنا حجم الدور والمسؤولية الأخلاقية – الإنسانية والدينية بالدرجة الأولى- الملقاة على عاتق كل إنسان أخلاقيّ حرٍّ للعمل ورسم الخطط لنهضة روحية إنسانية شاملة، تبعث فينا العواطف الإيمانية وتخرجنا من حمأة المادية المتوحشة.

ومما يعزز من هذه الفرضية؛ حقيقة أنه على الرغم من أن الرقي المادي ونظيره الروحي لا يعارض أحدهما الآخر كما يرى الإسلام؛ إلا أنهما وجهان من الحياة الإنسانية مختلفان تماما، وليس لأحدهما بالآخر علاقة ما، لا سلبا ولا إيجابا، وقد يمكن أن يوجدا أو لا يوجدا معا.وهذا الأمر يبدو بوضوح تام حين نقارن ما بين الإسلام وروح الغرب؛ فإذا كان الاتجاه الديني مبنيا دائما على الاعتقاد بأن ثمة قانونا أدبيا مطلقا شاملا، يجب الخضوع إليه؛ فإن المدنية الغربية الحديثة لا تقر بالحاجة إلى خضوع ما إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية بحتة "إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكنه الرفاهية. وإن فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها من طريق الرغبة في القوة، وكلا هذين موروث عن المدنية الرومانية القديمة".[50]

ختاما؛ إذا كان هنالك مَن يُعرف الأخلاق بأنها عبارة عن "طراز من النظر إلى جهد الإنسان في الإعراب عن ذاته في العالم. وأنها رغبة تتطلع إلى النظام وإلى الاتساق، وتهدف إلى فهم السلوك البشريّ فهمًا باطنيًا".[51] فإن القيمة الروحية تبدو دائما وأبدا حاضرة في سلوك الإنسان، لأنها هي التي تحدد اتجاه هذا السلوك، مثلما ترسم مقوماته وتعين بنيانه. ولذا يمكننا أن نعرف

القيمة تعريفا عاما بأنّها: "بنيةُ الواقع التي تُلازمُ عملنا، أو أنّها طراز الشروع في العالَم ووسْمِهِ بسمات مَطالبنا الدائمة أو الموقوتة".[52]

وفي كل الأحوال؛ فمما لاشك فيه أننا أصبحنا في أمسّ حاجة اليوم إلى استعادة دور التصوف في حياتنا العامة، خاصة مع تأكيد البعض أنه سيأخذ الشكل المستقبلي للإسلام، وأنه، نظرا لما يتضمن من نزعة إنسانية عامة، مرشح بالفعل لتمثيل دور مهم في المستقبل المنظور على المستوى العالمي .ومما يؤكد هذا الاحتمال أن البشرية باتت تشعر بالتهديد في كيانها المادي والروحي بسبب الضغط الذي يمارسه التقدم التقني على النفوس، وبسبب الفجوة التي أحدثها هذا التقدم في التوازنات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي الصحة النفسية للأفراد والجماعات!

ومما يزيد من أهمية استعادة هذا الدور أيضا أن القيادات الداعية للإصلاح والنهضة (خلال النصف الثاني من القرن العشرين) قد غفلت عن الاهتمام به، مقارنة مع رواد الإصلاح والتجديد كمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني، مكثفة جهودها على الجوانب العقلية والسياسية والتكنولوجية، ظنا منها أن التمكن من تلك الأمور، وامتلاك ناصيتها، كفيل بتحقيق النهضة المنشودة! وهو أمر أقل ما يقال عنه إن الوقائع التاريخية كذبته، ولعل أكبر دليل على ذلك أن الغرب الذي يقود العالم كله في تلك النواحي يعاني أزمة روحية عميقة، وخواء نفسيا كبيرا، وهو ما ينعكس في اهتمامه المتزايد بأشعار جلال الدين الرومي، ومذاهب الروحية الحديثة، والظواهر الباراسيكولوجية (الخارقة للعادة كالتواصل عن بعد).. إلخ. أضف إلى ذلك أيضا أن بعض مجتمعاتنا العربية قد حازت بالفعل أعلى التقنيات الحديثة، ولديها الكثير من الإمكانات المادية الهائلة، والثروات الطبيعية المتراكمة، إلا أنها لا تزال بعيدة كل البعد عن "النهضة" بمعناها الشامل: نهضة العقل والروح معا.

الإحالات والهوامش:

---

(1)السيد صالح+36

أبو بكر، *تأملات مسلم في جوهر العبادات في الإسلام*، رقم 392 من سلسلة المكتبة الثقافية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985)، ص4.

(2) محمد عبده، *الأعمال الكاملة*، تحقيق وتقديم محمد عمارة، ، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الشروق ومكتبة الإسكندرية، 1427 هـ- 2006م)، الجزء الخامس، " *في تفسير القرآن*"، ص485.

(3) قارن بـ البخاري، *الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه*، تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الأولى، (القاهرة: المكتبة السلفية، 1400هـ)، ص1.

(4) وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، وفي الصحيح وغيره أيضا يقول الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ مَن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء؛ وهو كله للذي أشرك". قارن بـ ابن تيمية، *مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية*، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1406 هـ - 1985م)، [37 مجلد]، المجلد الأول، توحيد الألوهية، ص 334.

(5) رواه *البخاري في صحيحه (52/كتاب الإيمان)، ومسلم في صحيحه (1599/المساقاة)*، من حديث النعمان بن بشير، رضي الله عنه. قال بعض الشراح في هذا الحديث إنه يمثل ثلث الإسلام، وقال فيه الحافظ بن حجر: "**هذا الحديث حديث عظيم، وهو أحد الأحاديث التي مدار الدين عليها، وقد قيل: إنه ثلث العلم أو ربعه**". قارن بـ ابن حجر العسقلاني: *فتح الباري بشرح صحيح البخاري*، تحقيق: محب الدين الخطيب، الطبعة الثالثة، (القاهرة: المكتبة السلفية، 1407هـ)، 116/1. وقارن أيضا بـ محمود علي قراعة، *الأخلاق في الإسلام من أحاديث الرسول ومن فتاوى ابن تيمية*، الحلقة 18 من سلسلة الروح الجامعية، (القاهرة: دار مصر للطباعة، 1964م)، ص 9.

(6) قارن بـ يمنى طريف الخولي، *القيم والدين في القرن القادم*، ضمن كتاب، *الفكر الديني ومستقبل القيم على مشارف القرن القادم*، أعمال الندوة التي نظمها منتدى حوار الحضارات بالهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية يوم 19 مايو 1999، تحرير القس/ أندرية زكي، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1999، ص13.

(7) بول تيليش، *الدين.. ما هو؟*، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، الطبعة الأولى، (القاهرة: مكتبة دار الكلمة، 2004م)، ص75.

(8) Michele Bertrand, *Le Statut de la Religion chez Marx et Engels,* Editions Socials, 1979, p.31.

(9) قارن بـ ابن عطاء الله الآدمي، *تفسير أبي العباس بن عطاء*، ضمن كتاب، *نصوص صوفية غير منشورة لشقيق البلخي وابن عطاء الآدمي والنفّري*، حققها وقدم لها: بولس نويا اليسوعي، رقم 7 من سلسلة "بحوث ودراسات"، (بيروت: معهد الآداب الشرقية، 1986م)، ص 68.

(10) قارن بـ صلاح الدين السلجوقي، *أثر الإمام الغزالي في الأخلاق*، ضمن كتاب: أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، (دمشق: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، 1382هـ-1962م)، ص72-73.

(11) تمام الحديث بحسب رواية أبي هريرة: "والذي نفسي بيده لا يدخل عبد الجنة إلا بعمل يتقنه. قالوا: يا رسول الله، ما يتقنه؟ قال: يحكمه". قارن بـ ابن عدي، *الكامل في ضعفاء الرجال*، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ)، 548/7. وقارن أيضا بـ ابن القيسراني،

ذخيرة الحفاظ المحرج على الحروف والألفاظ، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار السلف، 1416هـ)، 2021/4.

(12) السلجوقي، *أثر الإمام الغزالي*، 77.

(13) ابن تيمية، *مجموع فتاوى*، 198/1.

(14) العربي الدرقاوي، *مجموعة رسائل مولاي العربي الدرقاوي الحسني*، تحقيق: بسام محمد بارود، رقم 1 من سلسلة رسائل مغربية، (أبو ظبي: إصدارات المجمع الثقافي، 1999م)، ص 80.

(15) الآدمي، *تفسير أبي العباس*، 50. وقيل: كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم. وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يُحيي بالعلم ميتا فليس له حتى النشور نشور

والنور: عبارة عن الهدى والإيمان. وقال الحسن: القرآن. وقيل: الحكمة. وقيل: هو النور المذكور في قوله تعالى: "يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم"(الحديد: 12)، وقوله: "انظرونا نقتبس من نوركم". (الحديد: 13)

(16) ابن عطاء الله السكندري، *لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن*، تحقيق: عبد الحليم محمود، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1411هـ- 1991م)، ص 200.

(17) *المصدر السابق*، ص 201. وقارن أيضا بـ *رسائل الدرقاوي*، 114.

(*) في تفسير قوله تعالى: "وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء" (يوسف: 53) يقول ابن عطاء الله الحنبلي: أي ما أبرئ نفسي بنفسي، إنما أبرئ نفسي بربي. فالنفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، والنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة. فمن أعرض عن الجهود [المجاهدة]، فقد أطلق عنان النفس وغفل من الرعاية، ومهما أعانها فهو شريكها في مرادها، لذلك قال الجنيد: مَن أعانَ نفسه على هواها، فقد أشرك في قتل نفسه؛ لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء الأدب. قارن بـ *تفسير أبي العباس بن عطاء*، 63.

(18) *رسائل الدرقاوي*، 178.

(19) محمد عبد الله الخطيب، *العبادة في الإسلام، جوهرها وآفاقها*، رقم 7 من سلسلة نحو النور، (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1989م)، ص 7.

(20) قارن بـ *تفسير أبي العباس بن عطاء*، ص 45.

(21) يعلق ابن حجر الهيتمي على هذا الحديث بالقول: والمراد بكونه لا رياء فيه أن ذاته التي هي الإمساك بالنية، لا يمكن الإطلاعُ عليها من حيث هي، وإنما يطلع عليها بالإخبار عنها، بأنا صائم أو نحوه. وحينئذ فالرياء إنما هو بهذا القول لا بالصيام، فظهر أن الصيام لا رياء فيه. قارن بابن حجر الهيتمي، *إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام*، قدّم له وعلّق حواشيه: محمود النواوي، صححه وقابل الأصول: محمد الديوي، (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة: مطبعة الفجالة الجديدة، 1380 هـ- 1961م)، ص 8. وقارن بـ *فتح الباري*، 129/4.

(22) عباس محمود العقاد، *حقائق الإسلام وأباطيل خصومه*، (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1957م)، ص 112- 113.

(23) محمد كامل حته، *القيم الدينية والمجتمع*، رقم 386 من سلسلة، (القاهرة: دار المعارف، يوليو 1974م)، ص 94. هذا ويسوق المؤلف مثالا على الرقابة الذاتية بالمرأة التي أتت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تخبره بأنها حملت سفاحا فإذا به يردها ثلاث مرات فيمهلها حتى تضع حملها، وتفطم رضيعها، ولما أقام عليها حد الزنا فلتت من خالد بن الوليد كلمة نهره على قولها حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يارسول الله، أتصلي على امرأة زانية؟ فغضب الرسول، وقال: مهلا يا خالد! وأخذ يثني عليها مؤكدا أنها تابت من ذنبها توبة لو وزّعتْ على أهل الأرض لوسعتهم جميعا! لماذا؟ لأنه كان بإمكانها ألا تفضح نفسها، ومع ذلك أتت إلى النبي راغبة في التطهر من ذنبها في الدنيا، خشية عذاب الآخرة!

(24) رواه أحمد في مسنده، والبخاري في تاريخه، والدارمي في سننه، وحسنه النووي في رياض الصالحين بلفظ: "استفت نفسك وإن أفتاك المفتون". وعند أبي نعيم في حلية الأولياء عن وابصة بن معبد قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أريد لا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه، فجعلت أتخطا فقالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله، فقلت: دعوني أدنو منه فإنه من أحب الناس إليّ أن أدنو منه، فقال: ادن يا وابصة، فدنوت حتى مست ركبتي ركبته، فقال: يـا وابصـة! أخبرك عن ما جئت تسألني عنه؟ فقلت: أخبرني يا رسول الله! قال: جئت تسألني عن البر والإثم، قلت: نعـم، قـال: فجمع أصابعه فجعل ينكت بها في صدري ويقول: يا وابصة! استفت قلبك، استفت نفسك، البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك". أبو نعيم الأصفهاني، *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء*، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1423هـ)، 275/6.

(25) رواه أحمد عن وابصة بسند حسن، ومسلم والترمذي عن النواس بن سمعان، والبخاري في الأدب المفرد.

(26) قارن بـ ابن حبان، *المجروحين من المحدثين*، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السـلفي، الطبعـة الأولى، (الريـاض: دار الصميعي، 1420هـ)، 164/1. وأيضا محمد بن محمد الغزي، *إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسـن*، الطبعة الأولى، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، 1415هـ)، 355/1.

(27) العز بن عبد السلام، *زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز*، حققه وقدّم له: محمد السيد أبو زيد، (القاهرة: مكتبة الفجر الجديد، طنطا: مكتبة تاج، 2006م)، ص 49. وبحسب ابن تيمية؛ فإن آية "إياك نعبد وإياك نستعين" يجتمع فيها أمور أربعة ينفرد بها الحق سبحانه وتعالى وهي:

[1] أنه يجب أن يكون مقصودا مدعوا ومطلوبا،

[2] وأنه المعين على المطلوب،

[3] وأن ما سواه هو المكروه،

[4] وأنه هو المعين على دفع المكروه؛

فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه. وبيان ذلك: أن العبودية تتضمن المقصود المطلوب؛ لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يُستعان به على المطلوب؛ فالأول من معنى الألوهية، والثاني من معنى الربوبية؛ إذ الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما. والرب: هو الذي يربي عبده ويهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها؛ وشبيه بآية الفاتحة قوله تعالى: "عليه توكلت وإليه أنيب"،(هود: 88) وقوله: "فاعبده وتوكل عليه"،(هود: جزء من الآيـة 123) وقوله: "عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير"،(الممتحنة: جزء من الآيـة 4) وقوله: "وتوكل على الحي الذي لا يموت، وسبح

بحمده"،(الفرقان: جزء من الآية 58) وقوله: "عليه توكلت وإليه متاب"،(الرعد: جزء من الآية 30) وقوله: "وتبتل إليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا"،(المزمل: جزء من الآيتين 8-9) فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين. ابن تيمية، *مجموع فتاوى...*، 22/1.

(28) رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في *تاريخه* بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر في *كتاب العلم* عن الحسن مرسلا بإسناد صحيح، ورواه عن أنس الديلمي في *مسند الفردوس*، والبيهقي عن الفضيل بن عياض من قوله غير مرفوع.

(29) سيد قطب، *في ظلال القرآن*، الطبعة الأولى، [6 أجزاء]، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى، 1972م)، 24/1.

(30) المنذري، *الترغيب والترهيب*، تحقيق: محمد السيد، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الفجر للتراث، 1421هـ)، 243/3. وقارن بـ ابن تيمية، *جامع الرسائل*، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار العطاء، 1422هـ)، 97/2.

(31) *في ظلال القرآن*، ج1، ص 27.

(32) قارن بـ محمد فؤاد عبد الباقي، *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*، (القاهرة: دار الحديث، 1422هـ-2001م)، ص500-501.

(33) أحمد حسن الزيات، "*ثوراتنا الثلاث تعوزها رابعة*"؛ مجلة *الأزهر*، عدد جمادى الأولى 1380هـ-أكتوبر1960م، الجزء الخامس، المجلد الثاني والثلاثون، ص 408-409. ويقصد بالثورات الثلاث: الثورة السياسية التي تحقق الحرية، والثورة الاجتماعية التي تحقق المساواة، والثورة الاقتصادية التي تحقق العدالة الاجتماعية. وفي عدد يوليو 1961م كتب مقالا آخر بعنوان، "*ليس لفظ الثورة نائيا عن معنى الدين*"، جاء فيه: إن الإسلام في حقيقته وطبيعته ثورة مستمرة، ثورة على الفساد والشر، وحرب على البَغْي والعدوان، وما دامت هذه الكبائر في الأرض، فالثورة دائمة والحرب قائمة، وإنما نريد إذكاء شعلتها وإعلاء سناها، لتحد فيها ثورتنا العامة، القبس الذي يحييها بحرارته ويهديها بنوره! ص 130.

(34) ناصيف نصار، *منطق السلطة- مدخل إلى فلسفة الأمر*، الطبعة الثانية، (بيروت: دار أمواج، 2001م)، ص 181.

(35) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة قارن هنري برجسون، *منبعا الأخلاق والدين*، ضمن: *الأعمال الفلسفية الكاملة*، ترجمة: سامي الدروبي، وعبد الله الدائم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1976م). وانظر له أيضا، *الطاقة الروحية*، ترجمة: علي مقلد، الطبعة الأولى، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1411هـ- 1991م).

(36) عزة النص، "*التاريخ بين القومية والإنسانية*"؛ ضمن: *محاضرات الموسم الثقافي 1959-1960*، (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1960م)، الجزء الثاني، ص129-130.

(37) محمد أسد، *الإسلام على مفترق الطرق*، نقله إلى العربية: عمر فروخ، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار العلم للملايين، 1951م)، ص20. ويقول في موضع آخر: "ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير أن يُضيّع اتجاهَهُ الروحيَّ دقيقة واحدة. وهذا يختلف كثيرا عن وجهة النظر النصرانية...

[التي تؤكد] أن النفس ملك المسيح ولكن الجسد ملعب للمؤثرات الشيطانية، وأن عالم المادة شيطاني في أساسه، بينما عالم الروح إلهيٌّ خيّر". المصدر نفسه، ص 26.

(38) *تفسير أبي العباس بن عطاء*، 77.

(39) المنذري، *الترغيب والترهيب*، 109/3.

(40) محمد الغزالي، *هذا ديننا*، الطبعة الخامسة، (القاهرة: دار الشروق، 1421هـ- 2001م)، ص 100.

(41) أحمد فؤاد الأهواني، *القيم الروحية في الإسلام*، العدد 21 من سلسلة دراسات في الإسلام، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ربيع الثاني 1382هـ، سبتمبر 1962م)، ص 8.

(42) عادل العوا، "*الحضارة الحديثة وأثرها على القيم الأخلاقية*"، ضمن: *محاضرات الموسم الثقافي 1959-1960*، ص 63.

(**) وهذا الأمر تصوره بشكل واضح جدا مختلف الأعمال السينمائية الغربية المعاصرة. ولعل ذلك يذكرنا بما قاله بول فاليري من أن "فاوست" قد اغتصب من الشيطان سلطانه كشيطان، وبما قاله أحد أساتذة جامعة برنستون الأمريكية من أن المدنية الغربية ستحصل في يوم قريب على وسيلة تمكنها من الانتحار الذاتي في أي وقت تشاء! ومن المعلوم أن هذا الأمر (المفهوم الغربي للأسرة) أصبح يقلق الغرب، ليس من منطق العودة إلى الحالة الطبيعية التي تقتضيها الفطرة البشرية، وإنما بسبب عوامل أخرى يأتي في مقدمتها الخوف من أسلمة أوربا بسبب تنامي أعداد أبناء المهاجرين مقارنة بعدد أبناء الأوربيين الأصلاء! (تشير التقارير إلى أنّ معدل النمو السكانيّ لدى المسلمين يتراوح ما بين 2,5 و 3 في المئة سنوياً، في مقابل معدل لا يتجاوز 1,5 في المئة لدى الأوروبيين نتيجة تناقص معدلات الإنجاب المرتبط بنسق الحياة العلمانية العصرية) قارن بمقالنا، "*أفكار حول الإسلام ومستقبله في القارة الأوربية*"، جريدة الحياة اللندنية، السبت 26 ديسمبر 2009.

(43) العوا، *الحضارة الحديثة وأثرها*، 67-68. لذا يتساءل كبار المفكرين اليوم عن سر المأساة الفاجعة التي جعلت الشجاعة الحديثة عبارة عن شجاعة عناد، والذكاء ذكاء يأس، والتفاؤل تفاؤل الحماقة الأخيرة: حماقة الأمل! نعم حماقة الأمل التي تعبر عن أقصى شعور بمزق وجود الإنسان في المجتمع الحديث، ففي الوقت الذي تغلّبَ فيه الإنسان بجدارة على الطبيعة أطلقَ المارد من قمقمه فأخذته عزة الخلق بالإثم، وكبرياء الإبداع بالجهالة، ونمت قدراته المادية على حساب إيمانه الروحي، بعد أن أوقعت الآلة/الفخ في شراكها الإنسان. بمعنى آخر: لقد اصطادت الآلة ربها! وجعلت فريستها الإنسان حتى غدت أزمة الإنسان المعاصر هي أزمة الآلة التي اخترعها لتحل محله وتقوم نيابة عنه بكافة الأشياء التي من المفترض أن يقوم بها بنفسه. ونتيجة لذلك؛ أصيبت القيم الدينية والأخلاقية في مقتل حين شاهما التخلف والجمود، ولم تكن وحدها بطبيعة الحال من مات وإنما سارع نيتشة "المجنون المحترم" بإعلان وفاة الإله، وموت الفلسفة، وتبعه آخرون من أنبياء الفجر الكاذب مبشرين بنهاية التاريخ وموت الإنسان!! قارن بمقالنا، "*قلق الفلسفة: من إثارة السؤال إلى البحث في المآل*"، جريدة الحياة اللندنية، السبت 18 سبتمبر 2010.

(44) العوا، *الحضارة الحديثة وأثرها*، 73.

(45) بمعنى طريف، *القيم والدين في القرن القادم*، 13-14. ومن المعلوم أن المنهج العلمي منذ جاليليو يسير في طريق الفصل القاطع ما بين المعرفة العلمية ونظيرتها الخلقية، أي النظر إلى النسق العلمي في حد ذاته باعتباره منظومة من العبارات والفروض والظواهر والنظريات التي يطلع بوصفها وتفسيرها ولا شأن له بالقيم!! على الرغم من بديهية أن هذا

النسق العلمي لا يتقدم ولا ينفتح له المجال أصلا ما لم ينشأ في بيئة ثقافية متكاملة تملك بواعث التقدم في المجالات كافة. ومع أن القيمة قد تغيب أحيانا عن تفسيرات العلم؛ إلا أنها لا تغيب ألبتة عن المجتمع العلمي الذي أنتج هذه التفسيرات. ولذلك تُطلِقُ الفلسفةُ على مبحث القيم اسم Axiology والذي يقسم إلى ثلاثة أقسام هي: الحق، والخير، والجمال. ومن المعلوم أن الحق يرادف كلا من المنطق والصواب والاتساق والمصداقية والعلم هوعبارة عن نشاط إنساني هدفه تعقُّب المزيد من الصدق. أما الخير؛ فمعلوم أن المجتمع العلمي يستند على أخلاقيات راسخة كالذمة والأمانة وعدم الانتحال...إلخ. أخيرا تتداخل قيم الجمال أيضا مع فلسفة العلم فيما بات يُعرف باستاتيقا العلم حيث تستند النظريات العلمية والتفسير الرياضي على مكونات جمالية بحتة، كالاتساق والاتصال، ومن هنا يظهر خطأ المفهوم الشائع بأن لا علاقة للعلم بالقيم.

(46) الربيع ميمون، *نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية*، تقديم: عادل العوا، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م)، ص11.

(47) العوا، *الحضارة الحديثة وأثرها*، 76.

(48) قارن بـــ محمد المبارك، " *الصعيد العربي ملتقى المثل الروحية*" ، ضمن: *محاضرات الموسم الثقافي 1959-1960*، ص 175-178.

(49) أسد، *الإسلام على مفترق الطرق*،27-28. ويقول في موضع آخر: "إن الأوربي العادي يعرف دينا إيجابيا واحدا هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر، أو كما يقول التعبير الدارج "طليقة من ظلم الطبيعة". إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص ... وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات [وأبطال الكرة من الآلهة الجدد!!]"، ص 45-46. وقارن أيضا بالملامة التي وجهها الإمام محمد عبده تجاه ما يراه في المسيحية من هُرُّبية Escapism ومعتقد أخرويٍّ غير مبال بانتهاكات الطواغيت، ومن أنها تخلق في هذا العالم ثنائية غير سليمة وذلك عبر تكريسها الروحَ لله وتمكينها قيصر من حكم الجسد والمجتمع! قارن بـــ محمّد عبده، *الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية*، (القاهرة: دار المنار، 1373هـــ)، ص 24-25. ولمزيد حول هذه النقطة راجع تيم وينتر [عبدالحكيم مراد]، "*عيسى ومحمد: نقاط التقاء جديدة*"، *مجلة المحجة*، (بيروت: معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، العدد التاسع عشر، 2009)، ص15.

(50) أسد، *الإسلام على مفترق الطرق*،31-33. ويؤكد في موضع آخر: "إن المدنية الغربية لا تجحد الله ألبتة، ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لله في نظامها الفكر الحالي... وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك [ميل الأوربي إلى نسبة الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التي يُنتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة]، فإن العقل الأوربي يميل بداءة إلى إسقاط "الله" من دائرة اعتباراته". ص 37.

(51) عادل العوا، *القيمة الأخلاقية*، (دمشق: الشركة العربية للصحافة والطباعة والنشر، 1385هـــ-1965م)، ص 36.

(52) *المصدر السابق*، ص 38.